أنَّة بالقلب

قصة قصيرة

أنْ تُربتَ على قلبي، خيرٌ مِن أنْ تَقذفني حتى بالورد!

أميرة بدر

أنة بالقلب

أنْ تُريتَ على قلبي، خيرٌ مِن أنْ تقذفني حتى بالورد!

أُنَّةٌ بالقلب

أميرة بدر

أميرة بدر

أَنَّةٌ بالقلب

قصة الكاتبة:- أميرة بدر.

تصميم غلاف:- أميرة بدر.

تصميم وتنسيق داخلي وتعبئة:- أميرة بدر.

تم نشر القصة ضمن المجموعة الورقية «أكاذيب صادقة» المنشورة عن دار الزيات للنشر والتوزيع.

«أنة بالقلب»

****

ما زالت روحي معلقة حبيسة عذابًا لا ينتهي، تبثُّ نجوى عذابها كأنها تجهش بالبكاء، تستسلم في سكونٍ كمن يقلت العنان لروحه فتغدو طليقة تشدو باكية وكأنها تغتسل بماء دموعها، علَّ الدمع يظهر ما علق بها تتوق للخلاص؛ ولكنه التمني يدفعنا للتحلي بمظهر التماسك ونحن حطام.

اشتعل أيُّها القمر المضيء في السماء، وأنر لي دربي من جديد، نجومك تهديني السبيل فقد ضل طريقي وشرد عما أريد، فكم تمنيت حياة بسيطة هادئة مستقرة ولكن هيهات..

منذ قرابة أربع سنوات خلت، تزوجت من أول رجل تقدم لخطبتي بعد تخرجي من الجامعة مباشرةً، لم يكن زواج حب ولكني رضيت عشرته، تسلل حبَّه على استحياء إلى قلبي، رويدًا رويدًا تعلقت به من حيث لا أدري.

ذات يوم ضربتني الحمى فاستسلم لها جسدي الضعيف وبتُّ طريحة الفراش لا أقوى على خدمة نفسي انتظرت يد العون يمدني بها زوجي ولكن طالما عرفته قسي الطبع، حاد المزاج، عقيم الود، لا تأمن وصله ولا تنتظر منه رجاء، رغم يقيني أن ما يبقيه خلف قناع القساوة الذي يرتديه حبًا راكدًا هو نفسه لا يدرك مداه !

أتألم بصبر ولم يكن لوجع جسدي حظٌ في ذلك، فوجع روحي كان أعمق وأمنية حبيسية تغلغلت بالقلب؛ هي كل ما أملك.

كنت غاطة في النوم وقت ذاك، فانتشلني صوت قرعًا على الباب يدوي برأسي، فانتفضت لأفتح علَّ شيئا قد حدث.

خطوات زوجي السريعة قد سبقتني بالفعل وفتح الباب لطارقه، وإذ به أبي يقف أمامه ويعلو صوت حديثها كأنهما يتشاجران، شعرت بأنفاسي تتقطع وتثقل صدري، أرغمتُ نفسي على الوصول لحيث يمكني استرقاق السمع، فنما لسمعي صوت أبي الصاخب يقول:

- كيف تكون بقلب متحجر إلى هذا الحد؟!

قذفتْ تلك العبارة كحجرٍ ارتطم بوجهي ومن بعده قلبي فهشمه

لحطام وفتات.

التفت إلي والدي وهو بالكاد يشعرُ بأطرافه التي لم تعد تقوى على حمله بدا عليه الإعياء ضاربًا كامل جسده النحيل، والغضب كسا ملامحه الطيبة، لم أره على تلك الحالة من قبل!

أسرعت صوبه وأنا أحاول أن أمعن تركيزي وأستوعب ما يجري، تنهال الأسئلة وتتدفق برأسي كسيل عرم ولا تنفك تطاردني..

لمَ أتى في هذا الوقت المتأخر ؟!

ما عساه فعل زوجي ليقابله والدي بتلك القساوة؟!

أدركت مكانهما وبدأ دبيب الخوف والقلق يتسللان إلى جسدي، عندما وقعت عيني بعيني والدي المغرورقة بالدموع، قال بصوت متوسل:

- أمكِ مريضة!

تحشرتْ الكلمات الصعاب على قلبهِ ليلفظها، وقال بصوتهِ المتقطع:

- نقلتها إلى المشفى وهي تحتاج لوجودك !

نزل الخبر كالصاعقة، فأوشكت على فقد توازني بالكاد أحافظ على انتظام أنفاسي التي باتت تتقطع هي الأخرى، قلتُ بلهفة:

- ما أصابها؟!

هل حدث لها مكروه؟

أجبني ولا تخفي علي أمرًا كهذا؟!

التفتُ في عُجالة عائدة أدراجي دون أن أنتظر منه إجابة لسؤالي هممت مسرعةً لأبدل ملابسي وأجمع أغراضي، يداي ترتعشان وقلبي ينهت ألمًا.

قبل أن أصل الغرفة جاءني صوت زوجي يصيحُ في وجهي عاليًا، دون أنْ يكترثْ لوجود أبي:

- لن تذهبي !

التفت نحوه وإذ به عاقدًا حاجبيه مستشاط الغضب، يقترب بجسده الضخم وملامح وجهه المتجهمة، وبنظرة حادة يتطاير منها الشرر صاح قائلا:

- لن أسمح لك بالذهاب في مثل هذا الوقت المتأخر.

إن ذهبت معه ستكونين طالقًا!

رفعت هامتي ونظرت إليه باشمئزاز، رغم حنقي منه وكرهي له لسوء عشرته لي طوال أربع سنوات مضت، إلا أن كلمته هبطت على قلبي كالصاعقة، صدمتني فتدحرجت في تيه للحظات مرت كأنها دهر.

شعرت بأنني أنزلق من فوق جرف، صمت هنيهة أحاول فيها أن أستقي ثباتي مما تبقَ من رجاحة عقلي، ولكن حسم الأمر ولم يترك لي متسعا من التفكير، لم يعد له بقلبي ما يشفع تعنته معي، ضحكت بسخرية وهمست بسريرتي:

- هل كنت أملك الحق في التفكير ؟ يا له من متغطرس !

من يحسب نفسه ليعاملني هكذا!

دلفتُ إلى الغرفة وحزمت أغراضي في عجالة كنت صامتة فتحول صمتي لنشيج متقطع، دخل والدي وحمل الحقيبة عني وسبقني ببضع خطواتٍ.

كنت أتبع خطاه فلاحت مني التفاته لشرفتي حيث كنت أناجي قمري كل ليلة، بدا حزينًا يوشك على الخفوت كأنه أودع إشراقته لحيث أكون وأبى أن يضي بمكان أغيب عنه.

أوشكت أن أصل للعربة وعيني لا زالتا متعلقتين بدرج المنزل تتوسلان ظهوره من جديد، تطلعتُ لأن يأتي بأثري، ربت والدي على كتفي وقال بحنان:

- لا تظلمي نفسك بانتظار من يستلذ عذابك، وهو في حقيقة الأمر سعيد بدونك.

أجبته بقلبٍ مفطور:

- ولكن يا أبت..

قاطعني قائلا:

- يا بنيتي، أنةٌ بالقلب خيرٌ من ودٍ مصطنع !

أومات برأسي في استسلام أحبس الدمع يمقلتي دون أن أجهش بالبكاء، ترجلنا من السيارة ودلفنا للمشفى بسرعة لحيث توجد أمي.

كانت الساعة تشرف على الثانية صباحًا بتوقيت الحياة، ولكن ماذا عنها بالنسبة لمن أثقلتهم هي بهمومها، فأضحوا لا يبالون للوقت قيمة!

أعتمت الدنيا بنظري ونحن نقطع الممرات لهثًا، دلف والدي حجرة كانت إلى اليسار ولكنه سرعان ما عاد ليسأل عنها، لقد تم نقلها للعناية المركزة هذا ما علمته لاحقًا!

حالتها كانت تسوء يومًا بعد يوم، أما عن زوجي فلم يكن هناك أيُّ خبر عنه سوى تلك اللحظات التي كانت تداعب مخيلتي بين الفينة والأخرى، لحظات من الفرح سرعان ما تتخللها بعض الذكريات المؤلمة فتبدل ما ارتسم على محياي

من سعادة زائفة إلى وجوم وغروب يضاعف على ما أنا فيه من عذاب!

ذهبت لأحضر بعض الأغراض لأمي، وعند عودتي ألقيتُ بصري داخل حجرتها وإذ بها خالية، عجبت لذلك وهممت المغادرة للبحث عنها، ولكن راعني مشبك شعر مُلقى على الأرض بجوار سريرها، أسرعت والتقطته وأنا أعلم أنه يخص أمي، لا زالت رائحتها تنبثق من بين ثناياه.

أهٍ يا أمي !

تساءلت بحيرة تفترس تفكيري وتنهش ما تبقَ من قلبي المكلوم ترى هل أفلتت أمي الحياة كما أفلت المشبك ضفائرها؟!

أعلم أنها تصارع الموت كل ليلة، ولكن العجيب في الأمر أننا أحيانا تأخذنا الرأفة بالمريض نتعاطف معه ونتمنى له الخلاص ليرتاح، وما أن تدركنا تلك اللحظة، لحظة الحقيقة المرتقبة أو هكذا توهمنا.. يذهب كل هذا هباءً ولا يبق إلا الألم.

أسبوع كامل ونحن نتوسل القدر أن يرحم عجزنا ويرأف بضعفها، لكني ، صعقت بوالدي يقف قبالني، يتهاطل الدمع من مقلتيه زخات وقد شق طريقا لا ينقطع .... صرخت، بكيت، تألمت وشعرت بوقع وتد يدق له بقلبي، أذرفُ الدمع وأنا أناجيها من حيث لا مجال للرد..

لمَ تخلت عني بهذا الوقت؟!

وددتُ لو ارتميت بكامل جسدي في حضنها لأحتمي بها من هذا العالم البغيض أشعر أنني أشرف على الموت ببطء، ولمَ لا وقد أصبح المكان قاتمًا.

جلست على الأريكة وبدأ يتهافت جموع المعزين تباعًا، نسوة يتشحن بالسواد ويعتمدن البكاء والنحيب وقع أصواتهن يمزق روحي العليلة. كنا ننتظر وصول الجثمان لنلقي عليها نظرة الوداع الأخيرة، بلغنا الوقت بدوامته اللامتناهية يودعنا لحيث مصابنا، كنت كالمخدرة لا أشعر بحقيقة الأمور، لم أستفق من دوامتي إلا على صوت طرق بالباب.

تعلقت العيون مشرتبة صوب القادم، فقد كنا ننتظر قدوم الجثمان في أية لحظة، كان الواقف شاخصًا ببصره نحو جموع الحشد المتراكم هنا وهناك، ارتبك قليلا وجاء صوته من بعيد ناطقا باسمي:

- هل هذا منزل السيدة فاطمة السيد عيسى؟!

وجم الجميع ولم يستطع أحد أن ينبس ببنت شفة، فمرر الرجل سؤاله بعد أن علت نبرة صوته قليلا، كان يحمل عدة أوراق بيده، ويمسك قلمًا بيده الأخرى، بدا كموظف بريد أو بالأحرى مخبرا، بنظرات دامية أرسلتها على استحياء، وبحروف تقطر حزناً أجبته:

- إنها أنا... تلك المدعوة التي تريد!

تطلعني حيث أقف واجمة، وناولني ورقة طلب على إثرها أن أوقع بالاستلام، فعاجلته متسائلة:

- ما تلك الورقة، ما بها ؟!

أجابني بعينين غير ثابتتين كأنه يخشَ أن تلتقي بعيني، قال بخنوع:

- فقط امضي هنا باسمك واطلعي عليها لاحقًا!

كان يتهرب والنظر إليّ، فوقعتُ أوراقه وأنا أنتفض خوفًا ورعبًا من المجهول الذي يطاردني ترى ما تحويه تلك الورقة؟ ألم يكف هذا العالم ما أنا به من ضياع ! فتحتها وقرأت ما جاء بها، كانت إشهاد طلاقي....

ضجة عالية وبلبلة عظيمة، وجموع الناس ينخرطون ببعضهم البعض ذهابًا وإيابًا، الكل في عجلة من أمره كانوا يتأهبون لاستقبال جثمان المتوفاه جثمان أمي !

لا أعلم أبكيكَ أم أحتاج إلى حضنكَ لأبكي!

لقد نحرت الآهات وأبت الدمعات من الهطول، وتجمدت الصورة أمام نظري، بهتت جميع الألوان وأظلم كل شيء، حتى كلمات الوداع استعصت على أن تقال، وسكنت خلف أسوار عالية يصعب الوصول إليها.

شيعت أمي وكم عز على القلب فراقها، لحظة لا أستطيع تصديق أنها تحدث، كأنني بكابوس لا

ينتهي، أتوق لمن ينتشلني ويزرعني من جديد لحيث يكون كل شيء كما كان!

ولكن هيهات.. ما سطره القدر على العين أن تراء، والقلب ينكوي بجواه!

انفض جمع المعزين وعدتُ لمنزل أمي، كان موحشًا لأول مرة أحسه خاويًا من الحياة، كنت مثقلة، مهمومة، منهكة أود الارتماء لحضن جبل يعصمني ويعزلني عن جحود هذا العالم !

كم تمنيت قدومه ولو رياءً يأخذ بخاطري وبعزيني في موت أمي؟

بحثت عنه في جموع المعزين دونما جدوى، أعلم أنني لم أكن اختيار قلبه، ولكني بت قدره، في الوقت الذي اعتمد البعد، كمن يثور على قدره فيغيره.

رفعت هامتي وإذ به يقف شاردًا وسط صالة البيت، لم ينطق بكلمات العزاء المعروفة، بل وقف معتمدًا الصمت، أما أنا ...

- لماذا تفعل هذا بي، لمَ قلبكَ يألف طبع القسوة كحجر صلب، وروحكَ منغمسة في الكبر والقساوة؟!

تلك الكلمات كانت تصرخ بها روحي المنكسرة، دون أن ينطق بها لساني، لكم تمنيت الصراخ بأعلى صوتي في وجهه، وأقذفه بكل ما تقع عليه يدي، ولكني وقفتُ عاجزة لم أجرؤ على التلفظ بحرف واحد، لم أقوى حتى على النظر بوجهه.

اقترب هو مني وانتشلني من هواجسي وصاح باقتضاب:

- لم أكن أعلم أن والدتك...

قاطعته بحنق وغيظ:

- ومنذ متى وأنت تشغل بالا بها أو تأبه حتى بي ؟!

طأطأ رأسه بخزي ليس خجلا فمثله لا يعرف سبيلا للإحساس بالغير، من يألف طبع القساوة

لا يشعر كما نشعر نحن به، أو يدرك ما يلم بنا من ألم وعذاب، إنهم أصحاب قلوب متحجرة.

ذرفت دمعة على استحياء هممت أن أواريها في عجالة لكن يده سبقتني فمسحها، جذبني بقوة فتقاربت أنفاسنا للمرة الأولى، وشعرت باحتواء يشملني لم أشعر به طوال فترة زواجنا، همس بأذني قائلا:

- لقد أعماني الكبر.

من بعدها أردف:

- علمت قدركِ عندي عندما أفلتكِ !

هكذا نحن البشر لا نستطيع إدراك قيمة الأشياء إلا عندما نفقدها فهلَّ سامحتني رجاء!

جاء متأخرًا جدًا هذا الكلام، فات أوانه رمادًا بعدما انطفأتت ناره، لم أعد آبه لحديثه، ولم يعد يشغلني ندمه، بل ولم تعد تستهويني تصرفاته الحمقاء، أوليته ظهري والدموع بعيني تترقرق، لن أنكر حبي له ولكنه أخمده بقسوته فضاع وضيعني معه.

لم تمنحه كرامته فرصة لأن يعيد رجاءه، فهو شخص صارم شديد المكابرة، لكنه يحمل بين جنبات صدره قلبًا عطوفًا تعلق به فؤادي، ليته يعي ذلك لينه يدرك جمال روحه، وطبيبة قلبه، ليته يتنازل عن قسوته ويرضخ لما يمليه عليه ضميره ولا ينساق لفكره القسي.

همَّ مغادرًا يتجرع من كأس الخيبة وعلى طرف لسانه رجاءً يحفه الألم ولكنه يأبَ أن يبوح به.

لكزني لأول مرة طفله الذي ينبت في أحشائي منذ أربعة أشهر، لم أكن الأدرك من الحمل سوى تعبه وألمه، أما الآن لمست وجوده روحًا تعلن للعالم عن وجودها.

توالت ضرباته بقوة كمن ينتفض انتفاضة ثائر، فصرخت على أثرها بتلقائية فهلع نحوي مفزوعًا، فتلاقت عيني الباكية بعينه النادمة، استشعرت لأول مرة لهفته بين طيات حديثه المتخبط.

هنا أدركتُ أنَّ النصيب غالب، وأن القدر وحده من يخط لنا الطريق ويسطر أحداثه، فلملمت ما

تبقَ لي من روحي المنهكة لأبدأ من جديد،
وكأن شيئًا لم يحدث.